كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة باللغة العربية : النقد الأدبي القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: القاضي الجرجاني وقضية السرقات

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية: Al-Jurjani Judge and the poetic thefts

مقرر الفصل الثاني

القاضي الجرجاني وقضية السرقات ((ت٣٦٦هـ))

كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه.

المؤلف: هو علي بن عبدالعزيز بن الحسن الجرجاني، ولد في جرجان سنة (٢٩٠هـ) وبها نشأ وتولى قضاء الرَّي، وطاف منها العراق، والشام، والحجاز توفي سنة (٣٦٦هـ) وقال بعضهم سنة (٣٩٢هـ) ودفن في جرجان، ومن آثاره تفسير القرآن الكريم، وتهذيب التاريخ، وكتابة الوساطة ...

تسمية الكتاب والقصد من تأليفه:

سمى القاضي الجرجاني كتابه بـ (الوساطة بين المتنبي وخصومه) وقصد من تأليفه أن ينصف هذا الشاعر فيلحقه بطبقته من المحدثين كبشار وأبي نواس وأبي تمام، وهو على هذا النحو لا يكون من صف أشياع المتنبي الذين فضلوا شعره على أشعار معاصريه جميعاً، ولا من صف مبغضيه، فقال: (ليس بغيتنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة ولا مرادنا أن نبرئه من مقارفة زلَّةٍ، وأن غايتنا فيما قصدنا أن نلحقه بأهل طبقته، ولا نقصِّر بهِ عن رتبته...)

كذلك من الدوافع التي ألحت على القاضي تأليف كتابه هذا أنَّه وجد الناس على طبقتين:

الأولى: فئة أطنبت في مدحه، فقد أعلى ابن جني من شأن المتنبي وانتصر له كثيرون.

الثانية: فئة حاولت إزالته والحط من رتبته، وهذا ما حصل للصاحب بن عباد عندما ألف رسالة سماها (الكشف عن مساوى المتنبي).

وسار على اثره كثيرون.

إلا أن القاضي من باب الإنصاف قال: (وليس من شرائط النّصفَة أن تنعى على أبي الطيب بيتاً شذَّ، وكلمةً ندرت، وقصيدةً لم يسعفهُ فيها طبعُهُ، ولفظةً قصرت عنها عنايتُهُ، وتنسى محاسنه، وقد ملأت الأسماع... ولا من العدل أن تؤخر الهفوة المنفردة، ولا تقدِّمه الفضائل، وأن تحطه الزَّلة العابرة، ولا تنفعه المناقب الباهرة).

القضايا النقدية

ما هو الشعر؟

رأى القاضي الجرجاني أنَّ الشعر العربي – كغيره من الشعر– يعتمد في تكوينه على أربعة أركان وهي (الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادةً له وقوة لكلٍّ واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذهِ الخصال فهو المحسن المبرز).

فيقول:(ولست أفضِّل في هذهِ القضية. بين القديم والحديث والجاهلي والمخضرم، والأعرابي والمولَّد، إلا أنني أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمس، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر).

فقد وجد القاضي أن للبيئة أثراً كبيراً في لغة الشاعر، لذلك أخذ يوصي الشعراء إلى أن لكلٍّ غرض مفرداته فقال:(ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كلّه مجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني، فلا يكون غزلك كافتخارك، ولا مديحُك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك ...، فكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه).

- **الأسلوب الشعري.**

رأى القاضي أن الناس مختلفون في الأساليب، فقال:(وقد كان القوم يختلفون في ذلك، وتتباين فيه أحوالهم، فيرق شعرُ أحدهم، ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم، ويتوعر منطق غيره، وإنَّما بحسب اختلاف الطبائع، وتركيب الخلق، فإنَّ سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، ودماثه الكلام بقدر دماثة الخلقة...).

ويُرجع القاضي رقة أساليب المحدثين إلى التحضر الذي أصاب حياة الناس، فرقت الأذواق ومالت إلى اللين والدَّماثة، وغدا ذلك ظاهرة شملت الشعر المحدث.

إذ حدد القاضي الأسلوب الأنموذج للمحدثين في قوله: (ومتى سمعتَني أختارُ للمحدَث هذا الاختيار، وأبعثه على الطبع، وأحسِّن له التسهيل، فلا تظننَّ أني أريد بالسَّمح السَّهل الضعيف الركيك، ولا باللطيف الرقيق الخنِثَ المؤنث، بل أريد النمط الأوسط، ما ارتفع عن الساقط السوقي، وانحط عن البدوي الوحشي).

أما كيف يحقق الشاعر المحدث هذا النمط الأوسط من الأساليب في شعره، فبوساطة الطبع، فللطبع شأن كبير في تجميل الأسلوب، فيقول: (وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف، ورفض التعمل، والاسترسال للطبع، ولست أعني بهذا كلّ طبع، بل المهذب الذي قد صقله الأدب، وشحذته الرواية ...)).

وقد حدد القاضي اتجاهات أسلوب المحدثين بالآتي:

١- الميل إلى الإغراب ومحاكاة أسلوب القدماء، مما يوقعه في التكلف والتصنع، ويقضي هذا إلى ذهاب رونق شعره وحلاوته، فيقول:(وللنفس عن التصنع نفرةٌ، وفي مفارقة الطبع قلَّة الحلاوة وذهاب الرونق ...)

٢- الميل إلى التسهيل المسرف فيقع في الرَّكاكة.

٣- الميل إلى الرشاقة في الأسلوب، وهذا يتأتى من مجاراة الشاعر للطبعة، وقد أكد القاضي أنَّ لهذهِ الجمالية الأسلوبية تأثيراً قويًّا في قبول الشعر واستحسانه.

- **عمود الشعر.**

يُراد بعمود الشعر الأسس الجمالية التي ينهض عليها بناؤه عند العرب القدماء ويظهر أنَّ التسمية مستوحاة من عمود بيت الشَّعر الذي لا يقوم من دونه.

ذكر القاضي ستة أسس لعمود الشعر عند العرب لا ينهض بناؤه من دونها، فقال: (وكانت العربُ إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بـ: (١) شرف المعنى وصحَّتِهِ، (٢) وجزالةِ اللفظِ واستقامتهِ (٣) وتسلم

السَّبق فيه لمن وصفَ فأصابَ (٤) وشبَّه فقارب (٥) وَبَدَه فأغزر (٦) ولمن كثرت سوائر أمثاله وشواردُ أبياته، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض).

سنعمد إلى إيراد أنموذج تطبيقي عني بالجزالة اللفظية، على محور التفاضل بين الشعراء، فمن اقترنت في شعره الجزالة والاستقامة التي ملاكها قوة اللفظ، مع استقامته، فهو المقدّم على أقرانه.

فقد أورد القاضي الجرجاني في وساطته شاهدين، أحدهما لأبي نواس، إذ يقول[١]:

مِلـكٌ تصَـوّرَ فـي القلـوبِ مِثالُـهُ ❖ فكأنّـهُ لـم يَخْـلُ مِنْـهُ مَكـانُ

والآخر قول أبي الطيب[٢]:

كَـذَبَ المُخَبِّـرُ عَنـكَ دونَكَ وَصفُهُ ❖ مَـن بِـالعِراقِ يَـراكَ فـي طَرَسوسـا[*]

علق القاضي على ذلك قائلا: (فقصَّر؛ لأنه اقتصر على من بالعراق، وعمّ أبو نواس القلوب والأماكن، وبين اللفظين بوْن في الجزالة والصحة)[٣].

عند تأمل ألفاظ أبي نواس أجد أنها من جهة صحة المعنى أقوى، وألفاظه أجزل وأرزن، ألا ترى في قوله «ملك تصوّر في القلوب مثاله»، كيف جاء بهذا الشطر بألفاظه ومعانيه، وما يحمل من قيمة جمالية.

ثم انظر إلى دلالة «ملك» وما توحي للمتلقي، فهي تعني القوة، والعدل، والسيادة، هذه شمائل وصفات أدت وظيفتها في هذه اللفظة، وما توحي «تصوَّر»، إذ هي ضرب من الخيال الذي يضفي

---

(١) ديوان أبي نواس: الحسن بن هانئ، تحقيق وضبط وشرح أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م: ٣٠٩.

(٢) شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م: ٣٠٨/٢، وفيه «صدق» بدلا من «كذب».

(*) مدينة طرسوس أحدثها سليمان كان خادما للرشيد في سنة نيف وتسعين ومائة، وهي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، ينظر: معجم البلدان: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار الفكر، بيروت، د.ت.: ٢٨/٤.

على المعنى جمالا، فضلا عنها بوصفها لفظة انطوت تحتها مجموعة من الصور المتنوعة الخيال أنتجها تعدد القراءات، ثم أين هذا التصور؟ إنه في القلوب! محل المشاعر والأحاسيس، وأي قلوب؟ إنّه عمَّ كل القلوب والأماكن بقوله: «فكأنّه لم يخل منه مكان»، لذلك هو (يفترض قضية ثم يبني عليها نتيجة)[٤]، بيد أنّ أبا الطيب خصص «من بالعراق» فمن هذا جاء تفضيل بيت أبي نواس على بيت أبي الطيّب.

(٤) النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة: د. محمد مندور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٧م: ٢٩٢.